

البروفسور هيغل في طريقه إلى واشنطن

ألن ريان

Alan Ryan

استقطب اكتشاف فرانسيس فوكوياما حول «نهاية التاريخ» اهتمام الرأي العام في صيف ١٩٨٩. المقالة التي كتبها في صحيفة «ناشيونال انترست» حول «نهاية التاريخ» احتلت العناوين الرئيسية في مجلات التايم والنيوزويك وغيرها. تحولت المقالة في وقت قصير إلى رعدة في كل العالم. فالأنباء عن نهاية التاريخ أثارت الكثير من عدم التصديق، وحتى بالنسبة إلى أولئك الذين سرّهم إعلان فوكوياما أن الديمقراطية لم تعد تواجه خطراً من أعدائها لم يكن كافياً للإقناع بأن التاريخ قد توقف. والواقع أن هذا الطرح أصاب الكثيرين من القراء بالذهول. فقد جاء ذلك في الوقت الذي كان التاريخ يتحرك في كل مكان وبسرعة. فإعلان نهاية التاريخ تزامن مع القمع الدموي للحركة الديمقراطية الصينية في ساحة تياننمن (في بكين) وسبق بوقت قصير سقوط جدار برلين والاطاحة بتشاوشسكو.

إن قراء آخرين على معرفة بأعمال هيغل وماركس ونييتشه وغيرهم، يدركون أن ما قصده فوكوياما لم يكن التاريخ بمعنى القصة المليئة بالأشواق والاشواك والتي لا معنى لها، كما يرويها راو غبي، ولكن ما قصده هو «التاريخ ككل».

لقد كان استغرابهم ممّا طرحه فوكوياما أقل من استغرابهم من ردود الفعل التي أثارها. لقد تذكروا اعلان هربرت ماركوس حول نهاية التاريخ في «رجل البعد الواحد» وتذكروا اكتشاف دانيال بل حول «نهاية العقيدة»، لسنوات عدّة خلت.

إن فوكوياما يعترف بأن القصة التي يرويها هي قصة عتيقة، فمؤلفها هو الكسندر كوجفنيكوف وهو فيلسوف مهاجر، يعرف باسم الكسندر كوجيف، الذي بدأ في منتصف ١٩٣٠ يحاضر في طلاب معهد الدراسات العليا حول «ظاهرة الروح» لهيغل. في تلك المحاضرات أرسى ولأول مرة أطروحة هيغل حول «نهاية التاريخ»، وهي الأطروحة التي نسبها إلى نفسه والتي يأتي اليوم فوكوياما ليعممها مع بعض تعديلات من عنده.

كان لمحاضرات كوجيف جاذبية كبيرة، فقد حضرها ريمون آرون، وسارتر وميرلو بونتي بالإضافة إلى جورج باتاي وجاك لاكان، وأريك ويل وكثيرون غيرهم. وفي عام ١٩٤٧ جمع الروائي الفرنسي ريمون كينو محاضرات كوجيف في كتاب سمّاه «مقدمة لدراسة هيغل». ويبدو أن الكتاب لم يُعرف جيداً في الولايات المتحدة، لكنه كان معروفاً بشكل أفضل في كندا، إلى أن تمّت ترجمته جزئياً في عام ١٩٨١. قام بتحرير هذه الطبعة آلان بلوم تحت اسم: «انغلاق العقل الاميركي»، وكان بلوم أحد أساتذة فوكوياما في جامعة شيكاغو. وعلى الجانب الآخر من الأطلسي، كان كوجيف يزود تلاميذه بأول مقدمة عن هيغل رغم أنه كان يتعاطى مع عمل واحد فقط من أعمال هيغل وهو «ظاهرة الروح»

Phenomenology of Spirit

كان كوجيف ماركسياً ولكنه أمضى سنوات ما قبل الحرب يعمل من أجل مجد الرأسمالية ومن أجل ازدهار الدولة الرأسمالية في وزارة الشؤون الاقتصادية الفرنسية، ثم كموظف أسهم في المجموعة الأوروبية. توفي كوجيف في بروكسل عام ١٩٦٨. ولا يزال غامضاً التأكيد بأيّ معنى كان ماركسياً وربما كانت أكثر نظرياته شيوعاً تتعلق بأميركا ما قبل الحرب، إذ بدت له مجتمعات من غير طبقات

يتألف من قليل من العمال وعلى درجة عالية من الاستهلاك، ولذلك فإن هذا المجتمع يحقق طموحات ماركس.

يمكن القول كذلك من وجهة نظر أخرى، إنّ الولايات المتحدة وصلت إلى المرحلة الأخيرة من «الشيوعية» الماركسية من خلال أنّ جميع أعضاء «المجتمع اللاتبقي» يستطيعون أن يحققوا لأنفسهم كل ما يرونه مفيداً لهم من دون أن يعملوا، وأنّ الاتحاد السوفياتي يعطي الانطباع بأنه إذا كان الأميركيون يبدون وكأنهم صينيون وروس أغنياء، فذلك لأنّ الروس والصينيين ليسوا سوى أميركيين فقراء يسعون حثيثاً ليصبحوا أغنياء.

ليس «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» مجرد إعادة تسخين لدراسات كوجيف. وليس مجرد قصة منتفخة زهواً. إنها كتابٌ يعالج عدداً كبيراً من الاسئلة: من الاختلافات بين عادات العمل بين الأميركيين واليابانيين، إلى التطلعات الوطنية في أوروبا الشرقية، حتى نماذج المجتمعات المتخلفة مثل مظاهر «التداخل الاقتصادي للتاريخ». إن ما يجعله مميزاً هو محاولته ربط هذه القضايا بالموضوعين الأساسيين الواردين في العنوان: هل وصل التاريخ إلى النهاية؟ إذا كان الأمر كذلك فهل أوجد عالماً لا مكان فيه لغير مشاريع البورجوازية الجيدة؟ هل كتب علينا أن نكون ما استبعده نيتشه «الإنسان الأخير» الذي تقتصر آفاقه على تأمين رفاهيته الحيوانية؟

من السهل تلخيص كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير». وهذا ما يفعله فوكوياما بشكل جيد في مقدمته. لقد انتهى التاريخ من حيث إنه لم يعد يوجد هناك مجال لمعارك إيديولوجية كبيرة. إن الليبرالية الديمقراطية لم تنتصر فقط ولكنها ببساطة هي الموجود، وهي كل ما يمكن أن يكون موجوداً. واقعياً لم يعد هناك مجال للنقاش حول الاصوليات. لقد تحقق ما دعاه كوجيف «الدولة العالمية المنسجمة» وهي الليبرالية الديمقراطية. هناك سببان لانتصارها. الأول هو أن تطور العلوم وقدرتنا المتزايدة للسيطرة على الطبيعة تعني أن المجتمعات المؤثرة تقنياً تسيطر على المجتمعات غير المؤثرة. إن جانباً من تقنية السيطرة على الطبيعة تكمن في التنظيم الجيد. فالسوق والمؤسسة الرأسمالية، والوسيط الرأسمالي أثبتت

كلها أنها عوامل فاعلة في التنظيم . وهذا معروف اجتماعياً ويشكل وجهي العملة لماركس فيبر.

مع هذا فإن ذلك لا يكفي لتفسير كيف تحقّق التنظيم العصري للاقتصاد، أو كيف انتهى إلى الديمقراطية .

العامل الثاني هو المضمون غير المعقول للتصرف الاقتصادي الذي لا تشرحه سوسيولوجية ماركس فيبر؛ وهو «البحث عن الاعتراف» .

إننا لا نريد فقط ان نشبع حاجتنا في الغذاء والسكن والجنس والرفاهية، إننا نريد بعزم أشد ان نجعل من انفسنا شعباً يعتد به . جلس «اخيل» مقطب الوجه داخل خيمته عندما فشل الجيش الاثيني في اقتحام صفوف الطرواديين، ليس لأن الأسيرة بريس كانت مهمة كعادة للاستهلاك، ولكن لأنه فقد ماء الوجه بتسليمها إلى آغا ممنون . إن البشرية مشدودة بالرغبة الاعتراف والتماهي أكثر من رغبات رفع مستويات المعيشة . والسلطة الطبيعية تميل نحو مشاعر الهيمنة أكثر من ميلها نحو الحسابات الاقتصادية . ان مجتمعاً مثل مجتمعنا تترنح فيه الحسابات الاقتصادية هو نتاج تاريخ كانت تقوده اساساً «مطالب الاعتراف» .

لماذا يسفر ذلك عن ليبرالية ديمقراطية؟ لأن هذا هو النوع من النظام الاجتماعي حيث يشعر كل واحد بإتباع رغبته في الاعتراف . إن كل واحد يحظى باعتراف الجميع . انه ثابت محصن ضد أي انقلاب من قوى خارجية ترغب في الاعتراف بها ولكنها تفتقد إلى مثل هذا الاعتراف . تلك هي رسالة هيجل . غير ان النتيجة غير واضحة . فشكوى نيتشه التي يردد هيجل اصداءها، تقوم على اساس ان الامور التي حققت ذلك دمرت كل نقطة البحث حول الاعتراف . وكما كان يقال غالباً: «إذا كان كل واحد هو شخص ما، فإنّ اللاأحد ليس شخصاً» .

أسوأ من ذلك، إذا لم تكن هناك مشاريع جديدة بأن نخاطر بحياتنا من أجلها في عملية البحث عن الاعتراف، فإن ابرز ما في الحياة الإنسانية يكون قد

تلاشى. بالنسبة لكوجيف وفي ضوء هيدجر ونيثشه فإن الأمركة هي عودة إلى «اللاعقلانية الحيوانية». حوّل فوكوياما هذه الملاحظة الأقرب إلى التشاؤم إلى استنتاج مفاده أن التاريخ انتهى بانتصار الغرب.

خلال العامين منذ صدور مقالته الأصلية كان فوكوياما موضع اهتمام العديد من النقاد الذين جذبتهم مقالته. وخلال هذه العملية جُردّ منطق من كثير من مضمونه الجوهرى. والتذمر الأوضح ضد وجهة النظر التي تقول بأن العالم كله ملتزم بالليبرالية الديمقراطية يقوم على أساس أن معظم العالم غير ملتزم بذلك، أن معظم آسيا ملتزمة بنوع من الديمقراطية يقوم على مبدأ أن الحكومات مسؤولة أمام رعاياها، وأن عليها أن تمارس سلطة دستورية وليس سلطة شخصية. ولكن ذلك ليس ليبرالية ديمقراطية. إنها ديمقراطية غير مبنية على وليست ملازمة للاخلاقية الفردية التي تميز الليبرالية. إنها غير معنية باهتماماتنا حول الحدود بين الخاص والعام. إنها لا تشاركنا القلق بشأن إبقاء السلطة الحكومية بعيداً عن ولاءاتنا الجنسية أو الدينية أو الثقافية. لقد اطلق لي كوان يو على النظام الذي أقامه «رأسمالية شرق آسيا الكونفوشيوسية».

يوافق فوكوياما ولا يوافق في وقت واحد. إنه يقدم خريطة لليبراليات الديمقراطية تظهر فيها سنغافورة، ولكن يظهر من خلال اشارتين في النص أن النظام السياسي في سنغافورة هو نظام اوتوقراطي غير ليبرالي. وتحصل اليابان على معاملة متناقضة مماثلة. ومن الصعب تبرير عدم التماسك هذا. وربما يكون سببه أن فوكوياما لا يعرف ماذا يؤمن به حقاً.

يعزز هذا الشك التناقض بين التصريحات الجريئة الواردة في مطلع الكتاب واللهجة المترددة في الثلاثية صفحة التالية. نبدأ باعتقاد فوكوياما أن الليبرالية الديمقراطية هي موجة الحاضر والمستقبل، وأن أي اضطراب يتعرض له الانسجام الليبرالي سيكون قصيراً ومحلياً وغير مهم. ولكن في الفصول الثلاثة الأخيرة من الكتاب يهدد التاريخ ببداية جديدة شاملة. فالمجتمعات الغربية لا تكفي اعضاءها لأنها تقدم القليل جداً من الشعور المجتمعي، وهو شعور قوي في المجتمعات الآسيوية.

وبما انه سبق أن وافق على ان الليبرالية الديمقراطية قد لا تكون جيدة بما فيه الكفاية كالنظام السياسي الاوتوقراطي أو النظام الاشتراكي - الشيوعي من أجل تحقيق نمو اقتصادي، فإن فوكوياما لا يستطيع إلا ان يوافق على ان المزيد من المجتمعات الشيوعية والاوتوقراطية سوف ينجح في الصراع العالمي. حسناً، اين إذن نهاية التاريخ، ان الدولة العالمية المتجانسة لا تملئها «رغبة منطقية» و«اعتراف منطقي» ولكن إذا حدث ذلك فإنها تقدم نفسها على انها ليست ليبرالية ديمقراطية.

إنه يعترف أيضاً بما يطرحه العالم السياسي من جامعة بيركلي كين جويت بقدر أكبر من الحيوية، بشأن الهوة الواسعة جداً بين العالم الأول الذي يزداد غنى والعالم الثالث المستاء والمسلح نووياً والتي يمكن أن تؤدي إلى قدر من العنف في القرن الواحد والعشرين لا يمكن التكهن بنتائجه. إن فوكوياما غير قادر على ان يقرر ما إذا كانت هذه النتيجة سوف تستمر كانتصار لاطروحة نهاية التاريخ. أو أنها ستكون انطلاقة جوهرية نحو وجهة مختلفة. إذا لم يكن العالم الثالث مصدراً لشيء جديد، فإن فوكوياما مع ذلك يتساءل ما إذا كان الصراع الداخلي سوف يقضي على دول مثل الولايات المتحدة. وفي الواقع فهو ينهي الكتاب متسائلاً عما إذا كنا لن نحول أولاً نحو الليبرالية الديمقراطية ومن ثم نتوجه كلياً في اتجاهات مختلفة. إنه يغزل استعارة واضحة: ان التاريخ مثل عربة الرواد المتجهة نحو مدينة بعيدة مع عدة عربات تسير في نقاط مختلفة، ولكنها كلها تتوجه نحو نفس المكان. ولكنه ينتهي غير واثق من النتيجة يعتقد الكسندر كوجيف. أن التاريخ سوف يرر منطقة. بمعنى ان عدداً كافياً من العربات سوف يتوجه نحو المدينة كأى إنسان عاقل ينظر إلى الوضع ويجد نفسه مضطراً للموافقة على انه لا توجد إلا رحلة واحدة وهدف واحد.

من المشكوك فيه الاعتقاد اننا نقف عند هذه النقطة الآن. ذلك لأنه على الرغم من الثورة الليبرالية العالمية الاخيرة، فإن المؤشرات المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر عن اتجاه العربات يجب ان تبقى غير قطعية بصورة مؤقتة. في التحليل الأخير، لا نستطيع ان نعرف - على اعتبار ان معظم العربات سوف تصل إلى

المدينة ذاتها - ما إذا كان ركاها - وقد نظروا قليلاً حول محيطهم - سوف يجدون ذلك غير مؤات وبالتالي سوف يتطلعون نحو رحلة جديدة أبعد.

تتضارب هذه الفكرة الأخيرة مع زبدة الكلام حول الاساس الفلسفي لنظرية نهاية التاريخ.

إن قراءة غير متعاطفة لكتاب نهاية التاريخ والإنسان الأخير تبين ان الكتاب عرض لتخمينات غير مترابطة. فالموضوع الواحد لا يحظى بأكثر من صفحة أو صفحتين من النقاش، ورغم أهمية كل موضوع ورغم ان فوكوياما يكتب بأسلوب مشوق، إلا ان معالجته نادراً ما ترتفع فوق الابتذال. مع ذلك فإن الكتاب يغصّ بإشادات بعقريته من جورج ويل وشارلز كروثامر وايرفينغ كريستول وتوم وولف، وليس بينهم غبي أو من يسهل خداعه. من السهولة رؤية كيف ان جورج جيلدر لم يحسن قراءة كل الموضوع حتى انه اعتبره ترنيمة يحسن تداولها. ولكن يجب على جورج ويل ان يدرك أكثر من ذلك على الأقل. يجب ان يكون هناك شيء ما لا يمكن تحديد جاذبيته على الفور.

من هذه الاشياء الجذابة أن فوكوياما يجب ان يطرح اسئلة كبيرة. ومعظم الناس يحبون الاسئلة الكبيرة أيضاً. إن فوكوياما لا يقول فقط إن الليبرالية الديمقراطية هي الخيار السياسي الوحيد المفتوح، ولكنه يقول أيضاً ان الليبرالية الديمقراطية هي معنى التاريخ، وصاحب الحق في هذا الادعاء هو هيجل من خلال تسريبات كوجيف.

إن أي شخص قرأ هيجل يعرف أن هيجل لم يفكر بأن الليبرالية الديمقراطية تكون حيث يجب ان ينتهي التاريخ. اعتقد هيجل ان النموذج الأعلى للترابط السياسي هو في الدولة الشرعية المنطقية، والتي تكون لا ديمقراطية وليبرالية، فقط من حيث التزامها بحكم القانون. في الاساس لم يترك هيجل مكاناً للفردية التي يعتبرها الاميريكيون قلب الليبرالية. لقد اصر على افضلية الدولة على الفرد، كما اصر على انه ليس للأفراد حقوق على الدولة. وقال ان على العامة من الناس ان «تحتزم وتحتقر في آن». وقدم شيئاً أكثر اثاراً من فوكوياما وهو الدولة

التعاضدية كمثال على الترابط السياسي العصري الأكثر منطقاً.

بالنسبة لكوجيف وفوكوياما فإن الدولة الهيجلية ليست متجانسة، أي غير طبقية إلا ضمن مفهوم تطبيق القانون على الجميع، وهو المفهوم الذي يجعل منها دولة «عالمية». كان هيجل صريحاً حول الحاجة إلى موازنة السوق مع الشركات الشرعية الكبرى المعترف بها. وحول الحاجة إلى العنصر الزراعي الوراثي في الدولة، وحول اقامة مؤسسات بدلاً من الفردية، وحول عمل كل ما يمكن عمله لمراقبة الأسهم مع افساح المجال امام تأثيراتها التحديثية ان تأخذ مداها. يقول فوكوياما ان القليلين من الاميركيين يقرأون هيجل لاعتقادهم بأنه صعب وميتل فيزيقي. ويبدو ان فوكوياما هو واحد منهم. ذلك لأن الحقيقة هي أن «فلسفة الحق» عند هيجل ليست صعبة على الاطلاق. انها تقول فقط عكس ما يدعيه - فوكوياما - .

إن فوكوياما مثل كوجيف، يرسى قواعد قضيته على «ظاهرة الروح». وهذه الدراسة صعبة؛ أولاً لأن هيجل انهاها بسرعة، ثم لأنه ليس واضحاً ما إذا كانت تقول ما أراد ان يقوله أولاً. في الواقع من الصعب القول ماذا يعالج الكتاب؛ من جهة يبدو وكأنه سيرة ذاتية لله، من حيث تجلي الله في الثقافة الإنسانية. ومن جهة ثانية يبدو انه تاريخ الوعي الإنساني، سواء من حيث تطور العقل الفردي أو من حيث دور الثقافات في تطوير طرق محددة للتفكير.

إن السياسة تحتل مكاناً متواضعاً ويتقدم عليها الفن والدين والفلسفة. ويعتمد كوجيف إلى الابتذال في تقديم كل المشروع من خلال تحويله إلى علم الاجتماع (سوسيولوجي). ان فوكوياما يسفه الموضوع كلياً، فهو يؤكد لقرائه بعد عدة صفحات ان لا علاقة لفلسفة التاريخ مع الدين. وهذا أمر اما ان يكون مفككاً أو سيء التركيب. من ناحية أولى إنه يسيء تقديم القوة الدافعة وراء فلسفة التاريخ حتى فيما يتعلق بفوكوياما. ويلاحظ فوكوياما نفسه ان فلسفة التاريخ من خلال علاقتها «بمفهوم» العملية التاريخية الشاملة، هي موروث علماني عن الايمان المسيحي بالبعث. اعتقد الفلاسفة اليونان والرومان ان التاريخ هو ترديد وتردد كأي عملية طبيعية أخرى. إن ميكيايلي الذي يعتقد

فوكوياما بصورة غامضة انه مؤسس التاريخية الحديثة - سلك طريق اساتذته الكلاسيكيين من خلال تفكيره بنفس الطريقة. والتقليد اليهودي - المسيحي كان غير كلاسيكي باعتقاده أن للتاريخ شكلاً نهائياً درامياً مع بداية، ووسط، ونتيجة.

وجد التصور المسيحي للتاريخ (كتمثيلية من ثلاثة فصول - الهبوط، المعاناة، الخلاص) طريقه إلى فلسفة للتاريخ، كما وجد طريقه إلى المفهوم المادي للتاريخ عالمياً واجتماعياً عند هيغل وماركس. ونجبرنا الرئيس بوش انه بمساعدة الله ربحت اميركا الحرب الباردة وهزمت صدام حسين. إن إله فوكوياما هو تاريخ مع تاء كبيرة.

إن الادعاء بأن هيغل ممتلئاً بالنوايا السيئة تجاه الدين، يشيء إلى فلسفة هيغل. إذ يوجد انطباعٌ قديمٌ بدأ مباشرة بعد موت هيغل يدعي ان هيغل كان ملحدًا وإن كلامه عن الله لم يكن سوى تلفيق لخداع أسيادة البروسيين. ولقد شارك كوجيف في وجهة النظر هذه.

ان معظم ما ورد في «مقدمة إلى فكر هيغل» مخصص لفكرة أساسية وهي أن الإلحاد عند هيغل يقوم على معاملة الله وكأنه شيء مجازي عن الإنسان، ولكن كل الشواهد المتوافرة لدينا تخبرنا ان هيغل كان لوثريا اعتقد ان الحقائق الدينية التي تقوم بالصورة أو بالخيال، تحتاج إلى أن تقدم ببساطة وبمعقولية في الفلسفة إذا كان لها ان تكون موضع نقاش منطقي. كان موضوع فلسفة التاريخ موضوعاً لاهوتياً من أجل تبرير ارادات الله تجاه الإنسان، أو، بصورة فلسفية أكثر، من أجل إفهام الناس أنهم لا يستطيعون منطقياً ان يجعلوا العالم على صورة أفضل ممّا هو عليه. وكما يقول هيغل في نهاية فلسفة التاريخ، كذلك فإننا نرى أنه ليس صحيحاً أن هذه العملية ليست فقط من دون إله، ولكنها دائماً وفي كل مكان من صنع الله. إنها تتجاوز «الظاهرة» كما تضيع السوسيولوجيا المثالية عند هيغل. وما لم تفسر «الظاهرة» التاريخ على أنه من صنع الروح، فإن التاريخ يبقى عملية تراكم من اللعنات.

صحيح ان هيجل قدم العالم الحديث على انه عالم يتجه نحو نهاية التاريخ، غير ان فوكوياما أدار اذنأ صماء إلى الغوامض العديدة في اطروحته. لقد اعتبر هيجل ان التاريخ هو تاريخ الحرية. ولم تكن الحرية المعنية الحرية السياسية ولكن حرية «التوجيه الذاتي المنطقي». لم تكن الحرية عبارة عن تردد وعشوائية. فالطفل الذي يجيب على سؤال حول مجموع ثلاثة وأربعة بتسعة أو ستة، لا يمارس الحرية بل يعبر عن تقصير في علم الحساب. ان الحاسب يعرف ان الجواب الوحيد هو سبعة، ولكن سبعة ليست مفروضة عليه، انها ليست حقيقة خارجية عليه ان يخضع لها. ولكن عندما نحسب جيداً لا يوجد غير سبيل واحدة يتحتم سلوكها. والموضوع الذي يستحق نقاشاً ساخناً هو كيف ان هذه النظرة المنطقية إلى الحرية يمكن تطبيقها على كل منحي من مناحي الحياة. اما ما لا يمكن مناقشته فهو ان مفهوم هيجل للحرية هو مفهوم الحرية المنطقية. والسبب الوحيد الذي حال دون اهتمام النقاد الانكليزية هو انه اعتقد ان العقلية الإنكليزية «دع الأمور تمر» خلطت بين الفوضى والحرية.

أعتقد أن فوكوياما يعرف ذلك رغم أنه ليس لديه شيء يقوله حول طرق توافق (أو عدم توافق) الليبرالية الديمقراطية مع الحرية المنطقية. لقد استفذهم بالادعاء بأن تحقيق الحرية يعني نهاية التاريخ. حتى هنا فهو يصم أذنيه عن سماع الفارق. إن نظرة هيجل بالنسبة لنهاية التاريخ، تقوم على حساب مثلث بسيط لتاريخ الحرية.

كان هناك عصر ما قبل التاريخ عندما كانت البشرية تعيش خارج المجتمعات السياسية المنظمة؛ القبائل البدوية، العائلات المبعثرة التي تعمل في الزراعة البدائية، وهكذا بدأ التاريخ مع الاستبداد الفارسي. هنا تم اكتشاف الإرادة الإنسانية. فقد تحرر شخص هو الأمير. وصلت الحرية إلى العالم كملكية لشخص واحد ومورست كحكم استبدادي.. ظهورها التالي كان في السياسة اليونانية التي تميزت باطاعة القانون والحكم الذاتي والاستقلال عن ولايات أخرى. ولكن الحرية حصرت في عدد ضئيل من السكان - كانت المواطنة مقتصرة على الذكور الاحرار البالغين المولودين في الدولة والذين كانوا قادرين

على القتال دفاعاً عن بلدهم والذين كان يضمن استقلالهم ملكيتهم لمساحة كافية من الأراضي يعيشون منها.

مثل معظم الفلاسفة الالمان كان هيغل شديد التوق في شبابه لما بعد الجمهوريات الكلاسيكية حتى انه كشاب زرع مع سلير «شجرة حرية» احتفالاً بنشوب الثورة الفرنسية. وفي الوقت الذي كتب فيه «ظاهرة الروح» وحتى عندما كتب «فلسفة الحق» و«فلسفة التاريخ» قرر ان المواطنة الكلاسيكية تمثل نوعاً من الحرية ادنى من المستوى الأخلاقي والثقافي للعالم الحديث. فالحقيقة التي يجسدها العالم الحديث هي «ان الإنسان حر كما هو». ان هذا الشعار هو الذي تمسك به فوكوياما. ولكن متى اكتشفت الإنسانية أن الإنسان حر كما هو؟ ميز كوجيف نهاية التاريخ مع اعمال الثورة الفرنسية وأعلن ان «روبسبير - نابليون» كان فرداً عالمياً تاريخياً مهدت خياراته المدمرة للتاريخ الأوروبي للدولة العالمية المتجانسة.

من خلال وجهة النظر هذه تشكل معركة «جينا» التي هزم فيها نابليون القوات النمساوية - البروسية المشتركة نهاية التاريخ، وعندما رأى هيغل نابليون يتجول في مدينة جينا الساقطة رأى بالفعل «روح العالم متوجاً وراكباً على فرس». لقد سويت الأمور في جينا وأبرمت فيما بعد في ستالينغراد وبيروشيا.

غير ان في ذلك تخلياً غريباً عن أفكار هيغل. فقد ردد هيغل مراراً ان الحرية كجوهر للإنسان بدأت كمبدأ تاريخي عالمي مع مارتن لوتر ومع الإصلاحات البروتستنتية. وقد حدد بدايتها حتى إلى ما قبل ذلك، فرأى ان سقراط اطلق الفكرة من خلال ميله إلى املاء نرجسيته الشخصية على الرأي العام الاثيني الديمقراطي. ان عدم تذوق نيتشه لسقراط قام على اساس ان الانشقاق الضميري كان مدمراً لوحدة السياسة اليونانية. ورأى هيغل أيضاً ان القانون الروماني ابدى التزاماً بالفردية من حيث ان معاملة كل فرد كشخص شرعي بذاته، خاضع للقانون ومحمي به. ان تذوقه للمتناقضات يمكن تبريره بالتأكيد، فمن جهة أولى هناك تدني قيمة المواطنة في الامبراطورية الرومانية

باخضاع كل شخص إلى سلطة الامبراطور، ومن جهة ثانية هناك رفع مستوى الفردية من خلال الاصرار على الوجود الكلي للقانون (كلية القانون).

إن حقوق الضمير وشريعة الفرد، وحق الملكية، تشكل كلها عناصر الحرية الحديثة. ولقد اعتقد هيجل ان المجتمع الحديث يستطيع من حيث المبدأ ان يدرك ذلك إذا تعلم اعضاؤه المطالبة بحقوقهم ضمن حدود هذه الحقوق. هل كان ذلك نهاية التاريخ؟

من جهة أولى نعم. ان تاريخ مفهوم الحرية يجب ان يصل إلى نهايته لمجرد ان الإنسان حر كما هو لا يستطيع ان يذهب إلى أبعد من ذلك. ولكن هذه مجرد نقطة شفهية. انها لا تساهم في شيء للاجابة على السؤال حول ما إذا كان اكتشافنا للحرية المنطقية يصطدم بأي حدود. مات سقراط منذ ثلاثة وعشرين قرناً ومن الصعب انكار ان متغيرات جذرية قد حدثت منذ ذلك الوقت. أيضاً وحتى السنوات المئة والستين التي تفصلنا عن موت هيجل غنية بالمتغيرات الجذرية. ان كل ذلك يحمل الواحد منا على التساؤل ماذا كان يمكن ان يدور في عقل هيجل لو انه فكر أنه لن يحدث مزيد من التحولات الجذرية.

إن اعتقادي هو ان هيجل كان أكثر تضاداً وأشد غموضاً مما يعتقد فوكوياما. ان نظرة هيجل إلى الفلسفة على انها ارتفاع إلى المعرفة المطلقة، تعني ان على الفلسفة الجادة ان تقدم نفسها كعصارة لكل الفكر الماضوي، ولكل التاريخ الإنساني، ولكل الانجازات الثقافية. ولكن هناك ما يدعوللرثاء، طالما ان كل فيلسوف جاد فهم كذلك ان الفلسفات السابقة تفوقت بوسائل لم يكن بامكان مبتدعيها ان يتنبأوا بها. وبالمنطق نفسه فإن أي فلسفة للتاريخ هي عملية تكرار تقدم العملية التاريخية على انها تقود إلى الحاضر وترفض ان تنبأ بالمستقبل.

في مقدمته إلى «فلسفة الحق» يقول هيجل «إن البومة مينرفا لا تطير إلا عند الغسق». إن الفلسفة «ترسم بالرمادي على الرمادي. إنها تنظر إلى الخلف وترسم نوعاً من الحياة الذي يكون قد شاخ». ان ذلك بعيد جداً عن النظرية

المثلثة التي تقول ان هيغل يرى ان أنواعاً جديدة من الحياة قد تقوم، ولكن التنبؤ بذلك لم يكن من شأن الفلاسفة.

ماذا عن «الإنسان الأخير» في عنوان فوكوياما؟

يستعمل كوجيف وفوكوياما بصورة مكثفة ما ورد في «الفينومولوجيا» حيث يثير هيغل السؤال حول: كيف يميز البشر انفسهم عن العالم الخارجي؟ اعتقد هيغل بشكل اساسي ان أكل الاشياء، احراق الاشياء من أجل التدفئة، استعمالها بصورة عامة، يطرح نقطة ميتافيزيقية: ان الوعي البشري هو أكثر أهمية من الطبيعة. ان الحوار بين السيد والعبد يبدأ من فكرة اننا ميالون إلى معاملة الناس الآخرين وكأنهم جزء من الطبيعة، نريد استعمالهم أيضاً. ولكن بما انهم بشر وليسوا مجرد اشياء، علينا ان نستعملهم بشكل خاص. نريدهم ان يعترفوا ان اهدافنا هي اهدافهم، وأنه يجب ان يحسب لنا الحساب، اما هم فلا. يطرح هذا اشكالية واضحة. ذلك انهم ينظرون الينا في نفس الضوء. انها اشكالية لا تترك مجالاً للنقاش. اما ان اكون انا الشخص المهم أو ان تكون أنت. من الواضح ان هيغل كان يفكر في الروح الشعبية البطولية التي تقدمها الملاحم الشعرية الهوميرية كمثال على ما يمكن ان يؤول إليه الأمر تحت وطأة هذا الاندفاع لفرض ارادة ما على كل الآخرين. ان اشكالية التطلعات هذه تؤدي إلى صراع حتى الموت. فيما ان حياتنا هي التي تمنحنا القيمة، فإننا لا نكون جديين ما لم نغامر بها. ولكن صراعاً يموت فيه الطرفان ليس صراعاً جيداً. وليس صراعاً جيداً كذلك ان يموت احد الطرفين، ذلك ان ما نبغيه هو الاعتراف، ولا يمكن الحصول على الاعتراف من جثة. ان الصراع يجب ان يقسم الإنسانية إلى سادة وعبيد. يصنف العبد بخوفه من الموت، ويصنف السيد بإرادته على المغامرة بحياته. فمن يمسك بمفتاح مستقبل الإنسانية؟ خلافاً لما هو متوقع فإن الجواب هو: العبد. ان مالك العبد كسول وربما فائق الوحشية، متشوق لرؤية المعركة، وفيما عدا ذلك فهو محافظ ومحدود الأفق. اما العبد فعليه ان يعمل. ومن خلال هذه العملية يتعرف على ما تستطيع ان تفعله قدرة الابداع الإنساني. وهو يعرف كذلك معنى الاعتراف به كإنسان طالما انه

يعترف بسيده كإنسان . ولذلك فإن العبد يعرف كيف يمكن ان يكون تبادل الاعتراف بين متساوين .

من أجل تلخيص قصة هيغل الطويلة يمكن القول ان الحرية الإنسانية تتحقق في مجتمع يعترف اعضاءه بعضهم ببعض كمواطنين احرار ومتساوين . ان هذه الحرية وهذه المساواة ليست ، ونقولها مرة جديدة ، ليبرالية فردية ولكنها تعاضدية (الدولة) ، المثال النابليوني ، ان ما لا يأبه هيغل - أو حتى كوجيف - هو ما إذا ما كانت النتائج النهائية جذابة بما فيه الكفاية . يلاحظ كوجيف انه إذا كان البشر قد تحولوا إلى بشر من خلال الصراع التاريخي ، فسوف يتوقفون عن ان يكونوا بشراً بمجرد توقف الصراع . مع امركة العالم سوف تصبح حيوانات متفوقة . وتحديدًا لن تكون لنا ثقافة ، ولن يكون لنا فن ، ولن يكون لنا حب روماني ، ولن يكون لنا شيء من العواطف التي قادت التاريخ .

يعرف فوكوياما ماذا تولده هذه الفكرة . فخلافاً لقرائه الذين أعجبوا به ، فقد هالته فكرة ان نهاية التاريخ سوف تولد ناساً لا يريدون إلا زيادة الاستهلاك ، والمزيد من الملذات ، والأمن . لقد قرأ جيداً وبما فيه الكفاية ليعرف انه بالنسبة لنيتشه فإن لا شيء يصلح مثل المغامرة . بالحياة .

إن الذين يشكون من أن الانتصار في الحرب الباردة كان أقل إثارة مما يجب ، لهم جوابهم . وهو أن النهاية مثيرة بحدود ما تسمح به نهاية التاريخ . . أي أنها ليست مثيرة على الإطلاق . على الرغم من أن ألمعية فوكوياما تأتي من الطريقة التي زج بها هيغل ونيتشه في نقاش ما قبل الحرب الباردة ، فإن معظم كتابه اجتماعي أكثر منه فلسفي . وهذا صحيح بالنسبة للنقاش الطويل حول عدم القدرة على تجنب الآثار الصناعية ، وحول القول بأن الرأسمالية الصناعية أشد تأثيراً من البدائل الأخرى .

حول كل هذه الأمور تبدو أفكاره أرثوذكسية وحساسة . ولكن عندما يكون من الصعب معرفة ماذا يسبب ماذا ، يصبح فوكوياما قليل الكلام . وهكذا فإنه

يقدم توضيحات للمشاكل الاقتصادية في أميركا اللاتينية من دون ان يعتمد أياً منها بالتحديد.

ان الاستعداد نفسه لحياكة كل الامكانات في نسيج واحد ينبثق من مناقشة احتمالات السلام والأمن الدوليين. مع ملاحظة ان الديمقراطيات الليبرالية لا تقاتل بعضها - (أحرق البريطانيون واشنطن في حرب ١٨١٢، ولكن ذلك أمر لا يعول عليه كثيراً) - فقد بدا واثقاً من مستقبل يزخر فيه العالم بديمقراطيات ليبرالية، ولكنه لا يستطيع ان يجزم ما إذا كانت هذه الديمقراطيات ستحارب العالم الثالث. ويلاحظ أن أحد الاحتمالات يكمن في الحركة السكانية حيث أن شعوب العالم الثالث وحتى العالم الثاني تحاول الدخول إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة. ومن الصعب التنبؤ بما إذا كان هذا سيؤدي إلى التشوية.

من الصعب مناقشة هذا التحفظ. فإذا كان التاريخ يواجه نهاية، فإن أحداثاً معينة لا تواجه مثل هذه النهاية. والمجنون فقط هو الذي يغامر بسماعته ويتنبأ بمسار الاحداث الداخلية والعالمية خلال السنوات العشر القادمة. ان من اليسير جداً مناقشة التحليل البالغ التفكك الذي يعالج به فوكوياما الموضوع بجزم، أي موضوع لا عكسية الحل الليبرالي الديمقراطي لأمرأنا. ان جزءاً من المشكلة يكمن في ازدهاره الكامل للتاريخ بهذا المعنى، ويكمن جزء آخر منها في افتقاره إلى الخيال والتصور.

فيما يتعلق بمسيرة التاريخ، يرد في النص أنه يؤمن أن بريطانيا كانت ليبرالية ديمقراطية في عام ١٨٤٨، وكانت الولايات المتحدة ليبرالية ديمقراطية في عام ١٧٩٠، مع أنه يعرف الديمقراطية على أنها حق الاقتراع الكامل، وهو ما لم تحققه بريطانيا إلا في عام ١٩٢٨، وما لم تحققه الولايات المتحدة إلا في عام ١٩١٩. وبالعودة إلى الحواشي التي يوردها، فإنه يقول أننا نستطيع ان نسميها ديمقراطيات حتى عندما لا تتطابق مع الموصفات التي يحددها هو نفسه للديمقراطية. ان ذلك أمر مستحيل. ذلك أنه يتجاهل السؤال الأساسي الذي اثارته فظائع القرن العشرين. ولا يرى (فوكوياما) أي غرابة في ذلك فهو لا يعرف حتى ماذا تعني «الليبرالية».

إن فهرس الكتاب مليء بالمسايرات، حصل «توكفيل» على حقه. ولكن «جيفرسون» لا يظهر إلا بصعوبة، فيما يختفي «ميل» تماماً. إن أياً من الذين يأخذون الليبرالية بجد يتصورون أن أفضل دليل إلى الليبرالية هما الرجلان غير الليبراليين: هيغل وكوجيف الستاليني. وفي الحواشي يحاول فوكوياما جهده أن يظهر كوجيف كليالي ولكن عبثاً. عندما يكون السؤال الذي يواجه الأميركيين اليوم هو ما إذا كانت الديمقراطية الليبرالية مع فوضويتها التي ورثوها عن الآباء المؤسسين تضارع التعاضدية اليابانية والوحدة الأوروبية، فإنه لا يجدي نفعاً تجميع كل الأنظمة (باستثناء الديكتاتورية المركزية الشيوعية) وإطلاق لقب الليبرالية الديمقراطية عليها. فمن ارتفاع شاهر كهذا تبدو معظم الحياة الإنسانية غير مرئية لدرجة أن اليابان والولايات المتحدة تقدمان كمثالين عن النظام الاجتماعي - السياسي نفسه.

فيما يتعلق بالمستقبل الأبعد، كيف نستطيع ان نعرف ماذا ينتظر الإنسانية؟ فم منذ تسع سنوات فقط حقق جان فرانسوا ريغل ضربة كبيرة في كتابه «لماذا اندثرت الديمقراطية». في ذلك الوقت اشار الكثيرون إلى انها لم تكن تندثر باعداد كبيرة، غير ان السيد ريغل لم يتراجع. إن منطق الديمقراطية هو الاندثار، وإذا فشلت الشيوعية لسبب أو لآخر في ان تكون السبب، فلا بد من قيام سبب آخر. والآن يقول لنا السيد فوكوياما إن الديمقراطيات لن تندثر فقط ولكنها محفورة في التاريخ. اما التنوع الاقتصادي والسياسي والثقافي فقد سقط نهائياً.

جاء هذا الادعاء في الوقت الذي يتضخم فيه عدد سكان العالم، وفي الوقت الذي تشدد فيه الاصولية الدينية، وفي الوقت الذي نفتقر فيه إلى معرفة كيف نحل مشاكل البيئة بضمن معقول، وهذا كله جزء ضئيل من القضايا المركزية التي لا يبدو أن فوكوياما كان على وعي بها. هناك ما لا يعد ولا يحصى من المشاكل التي تحتاج إلى مصادر مؤسساتية وثقافية وسيكولوجية لمعالجتها. ويحتاج الأمر إلى كثير من الآفاق الضيقة وعدم القدرة على التخيل للاعتقاد بأننا غير قادرين على التفكير بأشياء جديدة. وليس واضحاً أبداً أن التنوع الثقافي

أصبح مستحيلاً. ليس التاريخ هو الذي أملى الديمقراطية على اليابان، ولكن الذي أمله هو هجومان نوويان واحتلال أميركي. ولم يكن فشل النازية هو الذي قاد جمهورية المانيا الاتحادية إلى التعددية الديمقراطية وإلى الرأسمالية، إنما ملايين القتلى والجرحى الذين سقطوا في ستالينغراد وهامبورغ ودرسدن وبرلين. لم تكن تلك مجتمعات توجه سكانها بصورة فورية «إلى الغرب». لقد قصفوا بالقنابل، وضربوا واحتلوا حتى اعتمدوا الديمقراطية.

لماذا علينا ان نتصور ان الجمهورية الشعبية الصينية سوف تتحول إلى صورة موسعة عن الولايات المتحدة؟ سيكون هناك تحول تكنولوجي ولكن لماذا سيكون هناك تحول ثقافي؟ طبعاً من الصعب تصور أي تغيرات دراماتيكية سوف تحصل ولكن التاريخ يأخذنا دائماً على حين غرة.

وفي النهاية يبقى الأمر محيراً ان يكون فوكوياما عزيزاً على المحافظين الأميركيين! أو أنّ الولايات المتحدة ليست كبريطانيا حيث يشكل المثقفون المحافظون فصيلة نادرة. انهم يتواجدون قطعاناً، وبتجمعات فكرية، في الصحف وفي برامج التلفزة، متحلقين حول السياسيين المحافظين، وفي مكاتب المؤسسات المتعددة. وهم يوظفون عادة للتعليق على الاحداث اليومية بدلاً من اعداد الأحكام حول تاريخ العالم. ان ما يدعو للحيرة هو لماذا اصبحت فكرة «البروفسور هيغل يتوجه إلى واشنطن» فكرة شعبية عامة. لماذا ينام الناس قريبي العين لمجرد أن يعتقدوا أن فيلسوفاً روسيا ميتاً ومترجمه الفرنسي الغريب الأطوار، صدّقاً أنهم يشكلون النتاج النهائي للتاريخ؟.

إن التغيير الوحيد الذي يمكن أن أفكر به يأتي من «كانديد» لفولتير. إن أستاذ كانديد، الدكتور بانفولس، يدعي ان ذلك العالم كان أفضل العوالم الممكنة، وأن كل شر هو شر بالضرورة. إن «كانديد» هجاء مقذع لفكرة ان هذا العالم يمكن أن يكون أفضل الممكن. وهو نقد لفكرة ان الشر فيها هو شر بالضرورة. إن السيد فوكوياما هو الدكتور بانفولس المحافظ. فإذا كان ما حصلنا عليه هو ما يريد التاريخ أن نحصل عليه، فإن ذلك يعني أننا نعيش في العالم الأفضل الممكن.

وإذا بقيت هناك بقية من الفوضى فإنها فوضى بالضرورة. وفي الوقت نفسه، فإن المرتاحين والمحافظين سوف ينعمون بفكرة أن امتيازاتهم تتحقق مع سماحة التاريخ. سوف يعبرون عن جديتهم العالية بكتابة المقالات المنمقة حول المستوى الثقافي المتدني للمجتمع الاستهلاكي، وسوف يُظهرون تعاطفاً مع أولئك الذين سقطوا من حافلة التاريخ قبل أن تصل إلى المجتمع الاستهلاكي. وفوق ذلك كله، سوف ينصرفون إلى سياسة الأعمال كالعادة. كان يقال أن الكنيسة الانكليزية «تشكل حزب المحافظين أثناء الصلاة». لم يكن للولايات المتحدة كنيسة مؤسسية، وربما شعر المحافظون بفقدانها، لقد قدم لهم فوكوياما كتاباً هيغلياً للصلاة، وهم له شاكرون.